## بعض المراجع باللغة الأجنبية


1 - Athusser (Louis) Montesquieu, la politique et l'histoire, Paris, P.U.F. , 1959
2 - Brunfitt (J.H.): Volaire historien "Oxford University, 1958".
3 - Chaunu: La civilisation de l'Europe des lumières, Paris 1971.
4 - Candorcet (J.M): "L'esquisse d'un tableau historique des progrès de l'esprit humain, texte revu et présenté par O.H. Prior, Boivin 1933.
5 - Condorcet (J.M): Oeuvres complétes de Voltaire, Paris 1880.
6 - D'Alembert: "Discours préliminaire de l'Encyclopédie" ed. annotée par Louis Ducors. Delagrave nouvelle 1930.
7 - Ehrard (J), Palmade (G), L'histoire, Paris, Collection U.A.1965.
8 - Guichemerre (R.): Montesquieu, (Extraits), Paris 1963.
9 - Guyot (ch): Diderot par lui même, Paris 1963.
10 - Mostequieu: De l'Esprit de Lois.
11 - Mostesquieu: "Considérations sur les causes de la grandeur des Romains et de leur décadence", Paris, ed. H.J. Ehard G.F. 1968.
12 - Montesquieu: "Lettres persanes".
13 - Touchard (J): Histoire des Idées politiques, t. 1, Paris, 1962.
14 - Volaire: "Essai sur les Moeurs".
15 - Volaire: "Histoire de Charles XII (1682-1718) ed. G. Mailhos G.F". 1968.
16 - Volaire: "Lettres philosophiques".
(هناك ترجمة عربية لهذا الكتاب بقلم عادل زعيتر، القاهرة 1959).
17 - Volaire: "La philosophie de l'histoire". Genève ed. J.H. Brunfitt, 2ème ed. 1968.
18 - Volaire "Oeuvres historiques, Textes établis, annotés et présentés par R. Pomeau, Gallimard, Paris, Collection la Pleiade 1957.




# العلماء الجزائريون في تونس
# فيما بين القرنين الرابع والرابع العاشر للهجرة، والعشريين للميلاد


د. عمار هلال


يذهب جل الباحثين والمهتمين بالحركة الثقافية والعلمية في الجزائر إلى أن رحلة علماء الجزائر وطلاب العلم رحلتان، إحداهما مشرقية، أخرى مغربية(1)، غير أن التعمق في البحث قد يثبت غير ذلك إثباتا مؤكدا. فقد رحل جزائريون إلى الأندلس(2) في فترات متقدمة من دخول الإسلام إلى إفريقيا(3) قبل أن يرحلوا إلى المشرق العربي، وأن بعضهم قبل أن يقصد هذا الجناح الأخير من الوطن العربي إتجه إلى العاصمة الأولى العلمية والثقافية لإفريقيا وهي القيروان(4)، وفي فترة متأخرة نسبيا (ق6هـ)، (ق12م) أضحت فاس محطة أخرى لعلماء الجزائر وطلابها، فقصدها البعض منهم للتفقه في دينه ودنياه، علما أن حركة العلماء الجزائريين في هذه الإتجاهات الأربعة(5): الأندلس، وتونس، والمغرب، والمشرق، غير مدروسة البتة، على الرغم من وفرة مادتها ويسر الوصول إليها.

والكلام عن حركة العلماء الجزائريون نحو المشرق تفصيلا وتحديدا يفرض على الباحث الفصل بين أمرين هامين وهما: التفقه في الدين، وأداء فريضة الحج، ومن علماء الجزائر، خلال هذه الفترة المتقدمة من علاقاتهم بالمشرق العربي من يخلط بين الرحلتين (العلمية والدينية)، ومنهم من يفصل بينهما، أو يجعل الجانب العلمي يتغلب على الجانب الآخر، ومنهم من اقتصر، كما أسلفنا على جانب واحد فقط.

والمشرق بالنسبة لعلماء الجزائر، خلال هذه الفترة، يمثل محطات علم وتثقيف كانوا يقفون عندها أو يتوجهون إليها وهي: الإسكندرية والقاهرة والقدس ومكة والمدينة وبغداد، ولكل إتجاه من إتجاهات الجزائريين عبر العصور أسباب ومبررات يصعب حصرها، وإن كان الطابع الذي يغلب عليه هو الطابع الديني - العلمي، وقد يتقدم العامل الديني في العصور الأولى لدخول الإسلام أرض إفريقية العامل العلمي. وقد استمر الوضع هكذا مدة قرون، بل إلى وقت قريب منا، لسبب بسيط هو عدم فصل الجزائريين عامة بين الدين والعلم، ففي نظرهم، فإن الأول يكمل الثاني، والعكس صحيح، فالعلم الحق، حسب معيار العصر، كان عليه أن يكون عالما وفقيها في دينه قبل أن ينصرف إلى الدراسة والتحصيل في أمور دنياه وما يحيط به من ظواهر مادية، وما يتعلق بها من فلسفة وسياسة واجتماع واقتصاد وثقافة.

ودراسة الإرتباط العضوي بين الدين والعلم، وتغلب الأول على الثاني، دراسة موضوعية قد تسلط الأضواء على كثير من الحقائق التاريخية لتطور المجتمع لا الجزائري فحسب ولكن أيضا المغربي والعربي على السواء، بل الإسلامي برمته على إختلاف نزعاته ومشاربه.

وإلى وقت قريب منا لم يفرق الجزائريون بين عروبتهم وإسلامهم، ولم يميزوا بينهم وبين غيرهم إلا على هذا الأساس الذي أثبتوا بواسطته شخصيتهم وهويتهم، فبالنسبة لرجل الشارع، وإلى يومنا هذا، يصعب عليه الفصل بين «العروبة والإسلام والجزائر» فالعناصر الثلاثة بالنسبة إليه تكون وحدة واحدة وهي الفرد الجزائري، فالعربي عنده بالضرورة مسلم، والمسلم حتميا عربي، ولا شيء غير ذلك.

وقد ترسخت هذه الفكرة بين أجيال من الجزائريين وبقيت سائدة بين الجماعات إلى بداية السبعينات القارطة حينما استفحلت النزعة البربرية المتطرفة محاولة التمييز بين الجزائري كجزائري والعروبة كعنصر أو كعرق والإسلام كعقيدة ودين.

وإن يبدو هذا التفكير ساذجا في حد ذاته في أيامنا هذه، فإنه استطاع لمدة قرون خلت أن يحافظ على تراص الشعب الجزائري ووحدته السياسية والإجتماعية والعقائدية والحضارية، فعلى هذا الأساس ووفقا له سعى علماء الجزائر منذ



العهود الأولى لاعتناقهم الدين الإسلامي إلى توثيق الصلات وربطها بينهم وبين إخوانهم في الدين مغربا ومشرقا وبما أن موضوعنا هذا يخص البلدان المغاربية، فكيف تطورت يا ترى علاقة النخبة المثقفة بهذه البلدان وما هي مميزاتها ومراحلها الهامة؟

وإذا أخذنا بعين الإعتبار العامل الزمني، والأسباب التي ذكرناها آنفا تأتي تونس في المقدمة لحركة العلماء الجزائريين، بحيث جلبت القيروان كمركز حضاري وسياسي واجتماعي أنظار هؤلاء إليها واستهوت الكثير منهم فألفوا سماءها وهواءها وعاشوا بين أحضانها ردحا من الزمن ولم ينتقلوا منها إلا مجبرين.

## 1) - تـونس

### المراحل الهامة لحركة العلماء الجزائريين نحو تونس

حسب تتبعنا لحركة العلماء الجزائريين، وانتقائها لعينة منهم، في تونس عبر عشرة قرون، أي فيما بين القرنين العاشر والعشرين الميلاديين، تبين لنا أن حركتهم هذه، مرت بأربع مراحل هامة، وهي: المرحلة الأولى والتي تمتد بين القرنين التاسع والثالث عشر الميلاديين، الثالث والسابع الهجريين، أما المرحلة الثانية فتمتد بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، الثامن والتاسع الهجريين، أما المرحلة الثالثة فتمتد بين القرن الخامس والثامن عشر الميلاديين، التاسع والثاني عشر الهجريين، والمرحلة الرابعة والأخيرة فهي التي تقع بين القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، ولكل مرحلة من المراحل السابقة الذكر علاماتها ومميزاتها الخاصة بها.

#### 1.1 المرحلة الأولى (ق 13/9 م)، (ق 7/3 هـ)

إن هذه المرحلة نفسها يمكن تقسيمها إلى مرحلتين هامتين، أولهما وهي المرحلة التي تمتد بين القرن التاسع والثاني عشر الميلاديين، (6/3 ق)، وعلى الرغم من طولها زمنيا، بحيث تمتد على مدى أربعة قرون تقريبا فإننا نلاحظ العدد القليل من

العلماء الجزائريين الذين شدوا رحالهم نحو تونس طلبا للعلم والعمل معا. بحيث احتك هؤلاء بنظرائهم هنالك وأخذ البعض عن البعض الآخر، ومنهم من طالت به الإقامة في تونس إلى حد أنه انصهر في بوتقة مجتمعها وصفوفها العلمية وتأقلم مع بيئتها الثقافية والسياسية الشيء الذي جعله شيئا فشيئا يفقد «جزائريته» لينتحل صفة الوسط العلمي والثقافي الذي كان يعيش فيه، وذلك مثل إبن رشيق الحسن أبو علي(6) الشهير بالقيرواني (385 - 463هـ)، (995 - 1071هـ) وذلك لطول مكوثه بمدينة القيروان خادما ملوكها. وإبن رشيق أصلا من المسيلة بالشرق الجزائري، حيث تعلم وأخذ من علمائها معارف عصره، وعن والده أخذ صناعة الصياغة ولكنه ما لبث أن مال إلى علوم الأدب والتاريخ والشعر والبحث العلمي، وقد يكون ابن رشيق أول واضع لأسس فن النقد الأدبي، والنقد عامة في إفريقية قديما. ومن خلال متابعتنا وتصنيفنا لعلماء الجزائر واختصاصاتهم وميادين نشاطهم العلمي والثقافي في الأندلس والبلدان المغاربية لم نعثر على عالم ناقد سواه خلال العشرة قرون الفارطة. وغادر إبن رشيق القيروان مضطرا، في ظروف أمنية خطيرة، واستقر بصقلية آملا في العودة إليها، ولكن الموت كان أسرع من أمانيه وآماله، فوافته المنية هنالك عن عمر يناهز سبعة وسبعين عاما(7).

وإذا كان إبن رشيق «المسيلي» أرقى وأشهر علماء الجزائر، خلال الفترة التي أشرنا إليها، بدون منازع، فهنالك من سبقه زمنيا إلى القيروان، وكان له ضلع وغبار يذكران في ميدان العلم والتحصيل، ونقصد بذلك العالم الجزائري «البسكري» إسحاق بن أبي عبد الله عبد المالك الملشوني(8)، المتوفى حوالي (226هـ)، (841 هـ)، والملشوني نسبة إلى قرية صغيرة متاخمة لبسكرة، عاصمة الزاب وبوابة الصحراء، وقد برع الملشوني في عدة علوم من علوم عصره من بينها علم التاريخ والفقه المالكي، مما جعله محل إهتمام الخاص والعام، بحيث جالس الإمام سحنون التونسي، عالم إفريقية في وقته، وأخذ كل منهما عن الآخر، كما قربه الأمير محمد بن الأغلب (206 - 242هـ)، إليه وخصه بمكانة مرموقة في بلاطه لعلمه الوافر وإطلاعه الواسع.

ومن العلماء الجزائريين المعاصرين لابن رشيق، إبن الزبيب الحسن بن محمد التميمي التاهرتي(9)، نسبة إلى تاهرت مسقط رأسه. وقد عاش إبن الزبيب ونشأ ومات في القيروان (340-420هـ)، (951-1029م)، وإبن الزبيب شأنه شأن إبن



رشيق والملشوني السابق الذكر من العارفين بالتاريخ، بل نسابة شهير، شاعر، أديب، ونحوي متفقه في علوم اللغة العربية، احتل الصدارة في قول الشعر بين معاصريه القيروانيين. وكما نلاحظ فهو ثالث علماء القرنين التاسع والعاشر الميلاديين المتزودين بثقافة تاريخية عالية، ولعل ذلك ما جعلهم جميعا يتمكنون من معارف عصرهم ويحتلون مراتب علمية مرموقة في وقتهم.

ومن أشهر علماء الجزائر(10)، خلال الفترة التي نحن بصدد دراستها، الغبريني أحمد ابن أحمد(11) (644-704هـ)، (1246-1304هـ)، فهو قاض، مؤرخ(12)، عالم بالحديث والتفسير واللغة العربية والمنطق، من كبار فقهاء المالكية في عصره. وكما هو واضح من اسمه، فهو من بني غبري، بطن من بطون القبائل الكبرى. ولد وتعلم ونشأ ببجاية، ومكث مدة في تونس طالبا للعلم، ويقال أنه أخذ على نحو سبعين شيخا من شيوخ وأعلام المغرب الكبير والأندلس.؟ قال النباهي: «ولي القضاء بمواضع عدة، آخرها مدينة بجاية، فكان في حكمه شديدا، مهيبا، ذا معرفة بأصول الفقه، وحفظ لفروعه، وقيام على النوازل، وتحقيق للمسائل ...»(13).

وقد أدرك الغبريني مطلع القرن الرابع عشر الميلادي، الثامن الهجري، وهو القرن الفاصل، بالنسبة لحركة العلماء الجزائريين نحو تونس، بين عهدين مختلفين كما وكيفا بالنسبة للعناصر الجزائرية الطالبة للعلم والتفقه في أمور دنياها ودينها. وعموما فلئن هذه المرحلة الأولى من حركة العلماء الجزائريين نحو تونس اتسمت بالعدد القليل من العلماء الذين ربطوا الصلة بينهم وبين تونس بالرحيل إليها طورا للتحصل والإستزادة والرجوع إلى وطنهم الأصلي طورا آخر، ومنهم من مكث مدة طويلة ورجع، ومنهم من استقر نهائيا إلى أن وفاه أجله هناك، فقد يلمس المرء فوائد الرحلة هذه في أنها شكلت همزة وصل بين الجزائر وتونس وفتحت الطريق واسعا نحو تواصل حضاري وبشري لا تزال أصوله إلى يومنا هذا تشكل منبعا خصبا للأخذ والعطاء بين الشقيقتين تونس والجزائر، وفي العصور التي تلي سنلاحظ التآزر تتوثق عراه تقريبا بشكل يجعلها صعبة التفكك بعد ذلك، وبغض النظر عن الأوضاع السياسية وما نتج عنها من تطورات، فإنه يبدو لنا أن العوامل الحضارية واللغوية والدينية والإجتماعية كانت أقوى في تثبيت العلاقات وتطورها إيجابا بين الشعبين الجزائري والتونسي عبر العصور، والرسم البياني التالي يبين لنا ذلك بطريقة لا غبار عليها.

رسم بياني لحركة العلماء الجزائريين نحو تونس فيما بين القرنين التاسع والعشرين الملاديين (14/3هـ)،

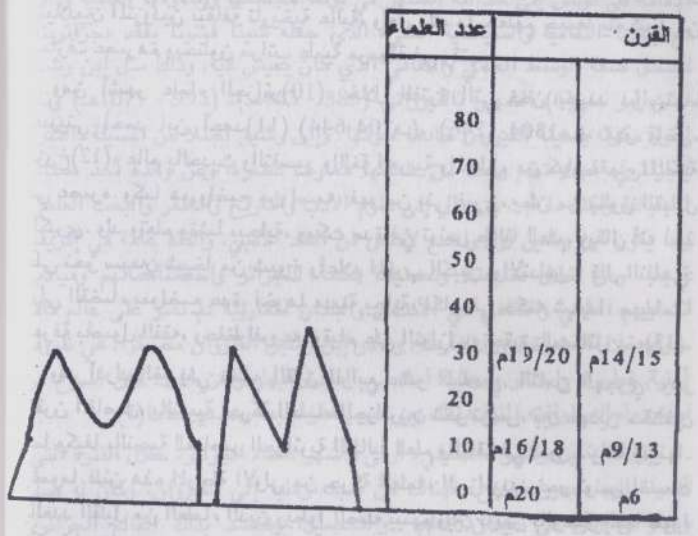


2.1 المرحلة الثانية (ق 15/14م)، (ق 9/8هـ)

تعتبر هذه المرحلة الممتدة ما بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، الموافقين للثامن والتاسع الهجريين، في حركة العلماء الجزائريين نحو تونس، من أزهى الفترات وأغناها تواصلا بين القطرين الشقيقين، وذلك بواسطة صفوتها المثقفة، بحيث نلاحظ ما يربو عن عشرين عالما جزائريا خلال قرن واحد (14م) قد ربطتهم صلة ما بالقطر التونسي الشقيق. وخلال القرن الذي يليه، وبسبب الإضطرابات السياسية التي سادت المنطقة والحوادث العسكرية وإنعدام الأمن نزل هذا العدد للنصف تقريبا، وبالضبط أحصينا إحدى عشر عالما شدوا رحالهم إلى تونس إما لطلب العلم لمدة معينة أو الإستقرار نهائيا هنالك.



ولعل أقوى مثل على ذلك هو إبن الإمام عبد الرحمان بن محمد إبن عبد الله أبو زيد، المعروف بإبن الإمام المتوفى (741هـ)، (1340م)، عالم كبير، وفقيه معتبر، من فقهاء المالكية (بحيث أجمع التراجم والسير بالمغرب الكبير على أنه كان من أشهر علماء عصره ولم يكن فيه أعظم رتبة ولا أعلم منه)(14).

ولد إبن الإمام وتعلّم ونشأ في برشك ثم رحل إلى تونس حيث واصل تعليمه وأخذ عن كبار علمائها. ومن تونس عاد إلى الجزائر العاصمة، حيث درس مدة من الزمن، ومنها انتقل إلى مليانة ثم إلى تلمسان، ومنها رحل إلى المشرق العربي، حيث التقى بكبار علمائه من بينهم شيخ الإسلام إبن تيمية (1320م) ثم عاد إلى تلمسان حيث توفي(15).

وعلى درب عبد الرحمان بن الإمام سار إبن الإمام عيسى بن محمد بن عبد الله أبو موسى ، شقيق الأول. وكان الشقيقان ملازمين لبعضهما في تعليمهما ونشأتهما وطلبهما للعلم داخل البلاد وخارجها وفي مهنتهما ونشاطهما العلمي والثقافي، بحيث عرفا حيثما حلا بإبني الإمام نسبة إلى والدهما الذي كان إماما في برشك. وما قلناه عن عبد الرحمان سابقا ينطبق تماما على شقيقه عيسى، عدا هذا الأخير توفي حوالي (749هـ)، (1348م)، أي حوالي ثماني سنوات بعد وفاة شقيقه الأكبر عبد الرحمان(16).

ومن أهم علماء هذه الفترة الشريف التلمساني (710-771هـ)، (1310-1370م)، من كبار علماء المالكية، باحث، إنتهت إليه إمامتهم بالمغرب الكبير. ولد ونشأ بتلمسان ثم رحل إلى تونس، فالمغرب، ثم عاد إلى تلمسان، حيث تصدى للتدريس إلى أن وافته المنية، (وكان شيخ علماء الأندلس أبو سعيد بن لب كلما أشكلت عليه مسألة فقهية كاتبه بها، وكذلك لسان الدين بن الخطيب، كان كلما ألف كتابا بعثه إليه وعرضه عليه مطالبا منه أن يكتب عليه بخطه)(17).

ولعل أغزر العلماء الجزائريين إنتاجا ونظما، خلال هذه الفترج، إبن مرزوق الحفيد (766-842هـ)، (1364-1438م)، فقيه حجة في المذهب المالكي، نحوي، عالم بالأصول، حافظ للحديث، مفسر، ناظم، ولد وتعلم ونشأ بتلمسان. رحل إلى تونس وفاس ثم دخل القاهرة. حج مرتين، الأولى سنة 790هـ، والثانية سنة 819هـ. مات بتلمسان(18).

ومن علماء القرن الرابع عشر الميلادي الذين تزودوا بالعلم والمعارف في تونس المقري محمد بن أحمد بن أحمد التلمساني، باحث، أديب، قاض من كبار علماء المذهب المالكي في عصره. ولد وتعلم ونشأ بتلمسان، ثم إنتقل إلى تونس لمواصلة تعليمه، ومنها دخل المغرب، والمقدس، ثم عاد إلى بلده(19) ... أما الجزء الآخر من حياته فيهم المغرب، وسنتناوله في الباب الخاص به.

ومن علماء الجزائر، خلال هذه الفترة، الذين تولوا خطة الإنشاء بتونس، المليكشي محمد ابن عمر البجائي، ثم التونسي الجزائري(20)، المتوفى (740هـ)، (1239م)، شاعر، أديب أخذ عن علماء مدينة الجزائر، ثم رحل إلى المشرق، ودخل الأندلس، ثم رجع إلى وطنه، وتوفي بتونس. ذكره الحضرمي فقال: (كان صدرا في الطلبة والكتاب، فقيها كاتبا أديبا حاجا راوية متصوفا فاضلا صاحب خطة الإنشاء بتونس، ذا تواضع وإيثار وقبول حسن، له شعر رائق، ونثر فائق، وكتابة بليغة، وتآليف مستظرفة ...)(21).

ومن أكابر علماء الجزائر في القرن الرابع عشر الميلادي، الثامن الهجري، الذي تعلموا في تونس، وأقبلوا على علاقتهم بها بعد ذلك، العالم الجزائري الشهير، عبد الرحمان الثعالبي (786-775هـ)، (1384-1480م)، صوفي من كبار المفسرين وأعيان الجزائر وعلمائها. ولد ونشأ في وادي يسر بالجنوب الشرقي من مدينة الجزائر. وتعلم في بجاية وتونس ومصر(22).

ومن أشهر علماء الجزائر في تونس(23)، خلال القرن الخامس عشر الميلادي، التاسع الهجري، يمكن ذكر الرصاع محمد بن قاسم بن عبد الله الأنصاري، أبو عبد الله، المتوفي (894هـ)، (1489م)، من كبار فقهاء المالكية في عصره، قاض نحوي، خطيب، عارف بالحديث(24).

ولد الرصاع بتلمسان، حيث تلقى تعليمه، وأخذ عن شيوخها، ولكنه نشأ في تونس الذي استقر بها نهائيا حوالى (831هـ) وولي قضاء الجماعة بها، ثم اقتصر في أواخر أيامه على إمامة جامع الزيتونة والخطابة فيه، متصدرا للإفتاء وإقراء الفقه وأصول الدين والمنطق والعربية وغيرها من علوم عصره، واستمر هكذا إلى أن وافته المنية بتونس.

وفي نفس الزمان والمكان نجد الطولقي إبراهيم بن محمد الأخضري، المتوفي (899هـ)، (1494م) من كبار علماء المالكية في عصره، عارف بالأصول، واللغة



العربية والمنطق وعلم الكلام والحديث وغيرها من علوم عصره(25). ولد بطولقة (بسكرة)، ثم استقر نهائيا في تونس حوالي (828هـ)، وتصدى للتدريس والإفتاء، وبقي هكذا إلى أن توفي بها.

وهناك الغبريني عيسى المتوفى (813هـ)، (1410م)(26)، من أهل بجاية، من كبار الفقهاء في عصره، قاض، عالم بالحديث، نشأ بتونس وأخذ عن كبار علماء عصره هنالك، وولي قضاءها وإمامة جامع الزيتونة، وهو أحد شيوخ عبد الرحمان الثعالبي.

ومن علماء الجزائر الذين عاشوا في نفس العصر ونشأوا بتونس وولوا قضاءها وإمامتها، نذكر القسنطيني أبا القاسم بن محمد أحمد الوشتاني، المتوفى (847هـ)، (1443م)(27)، وهو قاض من كبار فقهاء المالكية، نشأ بتونس وأخذ عن علمائها الكبار، وولي قضاء الجامعة وإمامة جامع الزيتونة وخطابته والفتوى به. مات مقتولا بتونس(28).

وبنهاية القرن الخامس عشر الميلادي، التاسع الهجري، تنتهي مرحلة من مراحل حركة علمائنا نحو تونس، لتبدأ مرحلة أخرى، وهي المرحلة الثالثة.

### 3.1 المرحلة الثالثة

وتمتد هذه المرحلة زمنيا من نهاية القرن الخامس عشر الميلادي إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، وقد يلاحظ الباحث ببساطة الكساد الثقافي والعلمي الذي يميز هذه الفترة التي هي كما هو واضح، فترة الحكم العثماني في كل من الجزائر وتونس، وقد يتجلى الفتور هذا في عدد ونوعية العلماء الجزائريين الذين عاشوا خلال هذه الفترة تارة في الجزائر وتارة أخرى في تونس. أما عن عددهم فلقد أحصينا حوالي تسعة علماء خلال ثلاثة قرون كاملة، انتقلوا بين الجزائر وتونس طلبا للعلم والمعرفة في ظروف تكاد تكون استثنائية، إذا ما قورنت مثلا بظروف القرنين الرابع عشر والخامس عشر مثلا، غير أن الظروف الصعبة هذه، وفترة الإنحطاط التي دخل فيها المغرب الكبير، لم تمنع بعض علماء الجزائر من البروز في علوم عصرهم، ولكن، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فإن عددهم كان يعد على أصابع اليد.

والحق أن هذه الوضعية لم تكن خاصة بالجزائر وحدها، ولا تونس ولا المغرب، بل كانت وضعية عامة سادت العالم العربي، بل الإسلامي كله، الذي بدأ في التأخر ليترك المجال فسيحا لحضارة الغرب الزاحفة عليه.

وكثير من المؤرخين والباحثين الجزائريين وغير الجزائريين الذين يحملون خطأ الدولة العثمانية مسؤولية ما آلت إليه بلدان المغرب الكبير، خلال تواجدها به، من كساد وفساد ثقافي وعلمي، ولكن السؤال الهام هنا، هل الدولة العثمانية في عقر دارها كانت أوضاعها أحسن؟ أهل كانت تعيش وضعية أخرى غير التي كانت سائدة عندنا؟ هل مارست سياسة ثقافية وتعليمية في المغرب الكبير غير التي مارستها في بلاد الأناضول؟ والجواب قطعا لا، ومن هنا يبدو واضحا عامل التخلف والتقهقر، الذي يكمن في هياكل الدولة نفسها وفي سياستها العامة والخاصة وفي تمط سلوكاتها المختلفة وفي عدم مسايرتها وتأقلمها مع العصور التي كانت تعيشها.

لقد ولدت الدولة العثمانية ونشأت وماتت دولة تقليدية، وعمرها الطويل الذي يقدر بسبعة قرون وربع القرن لم يخرجها من تقليديتها في كل المجالات، السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية، وبحكم علاقة الجزائر وتونس وطرابلس بهذه الدولة، فلم يكن بوسع هذه الدول المغاربية إلا أن تحذوا حذوها لتسير في خطوط سياستها العريضة، بل في سياسة العصور الإنحطاطية التي فعلت فعلها في العالم الإسلامي، بحيث حالت دون تقدمه ومسايرته للحركة النهضوية الأوربية التي نشأت وتطورت على حسابه.

وخلال المرحلة هذه، التي نحن بصدد دراستها، الموافقة للعصور الإنحطاطية، فخلال أكثر من ثلاثة قرون، لم نحص سوى عشرة (10) علماء جزائريون، كانت لهم علاقة ما بتونس.

وبما أنها عصور انحطاط حضاري وفكري فإن المرء لا يجد فيها عالما واحدا ذا شهرة وصيت مثلما مر بنا في العصور السالفة، وكل ما هنالك أننا نجد بعض الأسماء، ولكن بدون فائدة كبيرة، ولعل أشهرها: الثعالبي عيسى بن محمد بن عامر الجعفري(29) (1020 - 1080هـ)، (1611-1669م)، وهو محدث، من أكابر فقهاء المالكية في عصره، أصلا من وطن الثعالبة (مدينة الجزائر)، ولد ونشأ في منطقة القبائل الكبرى، ثم انتقل إلى الجزائر العاصمة حيث أخذ من بعض



علمائها، ثم رحل إلى تونس ومنها إلى الشرق العربي. مات في مكة(30). ومثله كانت علاقة أحمد التجاني(31) (1150-1230هـ)، (1737-1815م) بتونس الذي أقام فيها مدة وهو قاصد الحجاز سنة (1186هـ). وإن يحسب التجاني فإنما يحسب على المغرب، حسب المنهاج الذي سطرناه لدراستنا، وليس على تونس. وذكر اسمه في هذا الباب بأتي فقط من حيث تبيان قلة وندرة علماء هذه الفترة، على أن كتب التراجم والسير تذكر أن الفكون قاسم بن يحي، المتوفى (965هـ)، (1558م)، وقد واصل دراسته بتونس وولى الإمامة بها، ثم عاد إلى قسنطينة مسقط رأسه، فولي قضاءها. وقاسم بن يحي هذا، من عائلة إبن الفكون القسنطينية الشهيرة بعلمها ومكانها بين الأسر المؤثرة في الحياة الإجتماعية والسياسية(32)، كما تذكر نفس المصادر، عاشور بن عيسى القسنطيني (-1084 984هـ)، (1576-1664م)، عالم، رحال، من فقهاء المالكية(33)، إستقر بتونس وأخذ عن علمائها، مات بتونس، وإلى جانب هؤلاء، هنالك بعض العلماء الآخرين الذين عاشوا، خلال الفترة التي نحن بصدد دراستها وهم: قدوة سعيد بن إبراهيم المتوفى (1066هـ)، (1656م)، وهو تونسي الأصل جزائري المولد والنشأة(34)، وعزوز بن مصطفى المتوفى (1282 هـ)، (1768م)، مؤسس الزاوية الرحمانية بنفطة(35)، والأفضلي يحي بن صالح (1120-1223هـ)، (1708-1808م)، من علماء بني يزقن، تعلم في جربة، ثم عاد إلى وطنه حيث اشتغل بالتدريس إلى أن توفي(36)، والرحموني محمد الصالح (1152-1242هـ)، (1739-1826م)، الذي تعلم بتونس، ثم عاد إلى وطنه فاشتغل بالتدريس في بلاد القبائل إلى أن توفي(37).

وبنهاية القرن الثامن عشر الميلادي وبداية القرن الذي يليه تدخل حركة العلماء الجزائريين نحو تونس مرحلة أخرى، تضاهي أهمية المرحلة الثانية التي مرت بنا نوعا وكما.

تمتد هذه المرحلة زمنيا من بداية القرن التاسع عشر إلى حوالي منتصف القرن العشرين الميلاديين، وقد أحصينا هذه الفترة ما يناهز 30 عالما، أحد عشر منهم من أهل القرن 19م، و(14هـ) عاشوا ما بين القرنين التاسع عشر والعشرين وخمسة (5) من أهل القرن العشرين، عملا أن دراستنا تقف عند نهاية العشرينات من هذا العصر، وإن اتضح غير ذلك، فتلك حالة استثنائية غير قابلة لقياس كل الحالات عليها.

والحق أن هذه الوضعية لم تكن خاصة بالجزائر وحدها، ولا تونس ولا المغرب، بل كانت وضعية عامة سادت العالم العربي، بل الإسلامي كله، الذي بدأ في التأخر ليترك المجال فسيحا لحضارة الغرب الزاحفة عليه.

وكثير من المؤرخين والباحثين الجزائريين وغير الجزائريين الذين يحملون خطأ الدولة العثمانية مسؤولية ما آلت إليه بلدان المغرب الكبير، خلال تواجدها به، من كساد وفساد ثقافي وعلمي، ولكن السؤال الهام هنا، هل الدولة العثمانية في عقر دارها كانت أوضاعها أحسن؟ أهل كانت تعيش وضعية أخرى غير التي كانت سائدة عندنا؟ هل مارست سياسة ثقافية وتعليمية في المغرب الكبير غير التي مارستها في بلاد الأناضول؟ والجواب قطعا لا، ومن هنا يبدو واضحا عامل التخلف والتقهقر، الذي يكمن في هياكل الدولة نفسها وفي سياستها العامة والخاصة وفي تمط سلوكاتها المختلفة وفي عدم مسايرتها وتأقلمها مع العصور التي كانت تعيشها.

لقد ولدت الدولة العثمانية ونشأت وماتت دولة تقليدية، وعمرها الطويل الذي يقدر بسبعة قرون وربع القرن لم يخرجها من تقليديتها في كل المجالات، السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية، وبحكم علاقة الجزائر وتونس وطرابلس بهذه الدولة، فلم يكن بوسع هذه الدول المغاربية إلا أن تحذوا حذوها لتسير في خطوط سياستها العريضة، بل في سياسة العصور الإنحطاطية التي فعلت فعلها في العالم الإسلامي، بحيث حالت دون تقدمه ومسايرته للحركة النهضوية الأوربية التي نشأت وتطورت على حسابه.

وخلال المرحلة هذه، التي نحن بصدد دراستها، الموافقة للعصور الإنحطاطية، فخلال أكثر من ثلاثة قرون، لم نحص سوى عشرة (10) علماء جزائريون، كانت لهم علاقة ما بتونس.

وبما أنها عصور انحطاط حضاري وفكري فإن المرء لا يجد فيها عالما واحدا ذا شهرة وصيت مثلما مر بنا في العصور السالفة، وكل ما هنالك أننا نجد بعض الأسماء، ولكن بدون فائدة كبيرة، ولعل أشهرها: الثعالبي عيسى بن محمد بن عامر الجعفري(29) (1020 - 1080هـ)، (1611-1669م)، وهو محدث، من أكابر فقهاء المالكية في عصره، أصلا من وطن الثعالبة (مدينة الجزائر)، ولد ونشأ في منطقة القبائل الكبرى، ثم انتقل إلى الجزائر العاصمة حيث أخذ من بعض



علمائها، ثم رحل إلى تونس ومنها إلى الشرق العربي. مات في مكة(30). ومثله كانت علاقة أحمد التجاني(31) (1150-1230هـ)، (1737-1815م) بتونس الذي أقام فيها مدة وهو قاصد الحجاز سنة (1186هـ). وإن يحسب التجاني فإنما يحسب على المغرب، حسب المنهاج الذي سطرناه لدراستنا، وليس على تونس. وذكر اسمه في هذا الباب يأتي فقط من حيث تبيان قلة وندرة علماء هذه الفترة، على أن كتب التراجم والسير تذكر أن الفكون قاسم بن يحي، المتوفى (965هـ)، (1558م)، وقد واصل دراسته بتونس وولى الإمامة بها، ثم عاد إلى قسنطينة مسقط رأسه، فولي قضاءها. وقاسم بن يحي هذا، من عائلة إبن الفكون القسنطينية الشهيرة بعلمها ومكانها بين الأسر المؤثرة في الحياة الإجتماعية والسياسية(32)، كما تذكر نفس المصادر، عاشور بن عيسى القسنطيني (-1084 984هـ)، (1576-1664م)، عالم، رحال، من فقهاء المالكية(33)، إستقر بتونس وأخذ عن علمائها، مات بتونس، وإلى جانب هؤلاء، هنالك بعض العلماء الآخرين الذين عاشوا، خلال الفترة التي نحن بصدد دراستها وهم: قدوة سعيد بن إبراهيم المتوفى (1066هـ)، (1656م)، وهو تونسي الأصل جزائري المولد والنشأة(34)، وعزوز بن مصطفى المتوفى (1282 هـ)، (1768م)، مؤسس الزاوية الرحمانية بنفطة(35)، والأفضلي يحي بن صالح (1120-1223هـ)، (1708-1808م)، من علماء بني يزقن، تعلم في جربة، ثم عاد إلى وطنه حيث اشتغل بالتدريس إلى أن توفي(36)، والرحموني محمد الصالح (1152-1242هـ)، (1739-1826م)، الذي تعلم بتونس، ثم عاد إلى وطنه فاشتغل بالتدريس في بلاد القبائل إلى أن توفي(37).

وبنهاية القرن الثامن عشر الميلادي وبداية القرن الذي يليه تدخل حركة العلماء الجزائريين نحو تونس مرحلة أخرى، تضاهي أهمية المرحلة الثانية التي مرت بنا نوعا وكما.

تمتد هذه المرحلة زمنيا من بداية القرن التاسع عشر إلى حوالي منتصف القرن العشرين الميلاديين، وقد أحصينا هذه الفترة ما يناهز 30 عالما، أحد عشر منهم من أهل القرن 19م، و(14هـ) عاشوا ما بين القرنين التاسع عشر والعشرين وخمسة (5) من أهل القرن العشرين، عملا أن دراستنا تقف عند نهاية العشرينات من هذا العصر، وإن اتضح غير ذلك، فتلك حالة استثنائية غير قابلة لقياس كل الحالات عليها.

ومن خلال تتبعنا للمثقفين الجزائريين الذين عاشوا خلال القرن التاسع عشر ميلادي، تبين لنا أنهم ينقسمون إلى ثلاثة أصناف، فمنهم من دخل في خدمة الحكومة التونسية، وإكتسب فيها، وسكن تونس ومات فيها، أما الصنف الثاني فهو الذي رحل إلى تونس لطلب العلم بها، بجامعة الزيتونة، ثم رجع إلى بلاده بعد إتمام دراسته، أما الصنف الثالث والأخير فقد أقام في تونس إقامة مؤقتة أو دخلها لفترة محدودة ثم إنتقل منها حيث مقصده الذي كان عادة مشرقيا.

وباعتبار أن القرن التاسع عشر الميلادي إمتداد للعصور الإنحطاطية، وعصر تقهقر وكساد ثقافي، فأين مكانته بين القرنين الخامس عشر والعشرين الميلاديين؟

إن القرن الخامس عشر الميلادي عامل فاصل بين مرحلتين هامتين من تاريخ الجزائر الثقافي، باعتباره يفصل بين عصور الازدهار العلمي والثقافي وعصور الفساد والكساد، أما القرن العشرين فهو بداية مرحلة أخرى هامة بالنسبة للجزائر، والتي هي مرحلة النهضة المعاصرة، لا من حيث المجال الثقافي فحسب ولكن أيضا من حيث المجالين السياسي والاجتماعي، ويمكن إضافة مجال رابع إلى المجالات الثلاثة السابقة، والذي هو المجال الديني، الذي طرحت مشاكله بحدة، خلال الثلث الأول من القرن العشرين، الشيء الذي تمخض عنه وضع النواة الأولى لحركة إصلاحية جزائرية إعتمدت أساسا على التعليم العربي للنهوض بالبلاد وإخراجها من دائرة التخلف والتقهقر إلى دائرة التقدم والرقي الحضاري والعلمي.

وإذا كان القرن التاسع عشر الميلادي قرن الحوادث الجسام التي شهدتها منطقة المغرب الكبير ومنها على وجه الخصوص إنتهاء العهد العثماني في كل من الجزائر (1830) وتونس (1881) وإحلال محلها العهد الإستعماري الفرنسي – وفشل المقاومة المسلحة، في كل القطرين أمام الإستعمار الفرنسي، فإن الربع الأخير من هذا القرن، وبالخصوص العشرية الأخيرة منه، وبالنظر إلى أوضاع المنطقة السياسية والإجتماعية والثقافية، قد جعل الجزائريين يلجأون إلى طرق وأساليب أخرى لتصفية حساباتهم مع الإستعمار الفرنسي، من ذلك خلق وعي وطني وبث دعاية عريضة تنديدية ضد الإستعمار الفرنسي في البلاد، وذلك بإستعمال الوسائل التي جلبها الإستعمار إلى البلاد، المادية منها والمعنوية، من الأولى الطباعة والصحافة، والثانية استخدام عناصر مقومات الثورة الفرنسية الكبرى وشعارات فرنسا السياسية والاجتماعية، ومنها الديمقراطية، والمساواة،



والحرية، والإخاء، وغيرها من الشعارات التي تغنى بها الإستعمار الفرنسي في الجزائر ولكن تطبيقها كان قصرا على فرنسا.

ومهما يكن فلقد تميز القرن التاسع عشر بالجمود الفكري والخمول الثقافي، وانعدام تعليم عربي، أو مدرسة تربوية عربية من شأنها تحضير الأجيال حضاريا واجتماعيا وسياسيا للقيام بأدوارها المنوطة بها في كل المجالات، وذلك ما يتضح جليا من خلال حركة المثقفين الجزائريين باللغة العربية نحو تونس.

فخلال هذا القرن، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، لم نعثر إلا على النزر القليل من المثقفين الجزائريين الذين شدوا رحالهم نحو تونس، أما عن الذين كان استقرارهم دائما بتونس، وعملوا وسكنوا وتوفوا بها، فعددهم أربعة على الأكثر، منهم، محمد بن عيسى الجزائري(38) (1243-1310هـ)، (1828-1892)، وهو كاتب من الكتاب البلغاء، عارف باللغة العربية وعلومها وبالتفسير. ولد ونشأ وتعلم بمدينة الجزائر، ثم انتقل إلى تونس سنة 1272 هـ، وتولى بها رئاسة الكتابة العامة، ثم خطة الإنشاء سنة 1302 هـ، ثم انقطع إلى العلم إلى أن توفي.

ومن المعاصرين لمحمد بن عيسى، الخيراني قاسم بن محمد بن علي الجزائري(39)، ثم التونسي، لمكوثه مدة طويلة في تونس، وهو مهتم بعدة علوم من علوم عصره، متكلم، ناظم، عارف بالفقه، وقد توفي الخيراني سنة (1308هـ)، (1890م). وفي نفس الفترة الزمنية عاش وتوفي الطولقي الحسن بن علي بن عمر الطولقي(40) (1236-1309هـ)، (1830-1891م) وهو من أهل طولقة (بسكرة)، إنتقل إلى تونس، وسكن بها وتوفي بها، وهو فقيه مالكي، صوفي مهتم ببعض علوم عصره، وإلى هؤلاء يضاف العربي بن عطية البوعبدلي الشلفي(41) (ق 13هـ)، (ق 19م)، الصوفي، من دعاة الطريقة القادرية، رحل إلى المغرب ثم إلى تونس التي مكث بها إلى أن توفي.

وهناك بعض الفقهاء والقضاة الجزائريين، الذين عاشوا خلال القرن التاسع عشر الميلادي، والذين تعلموا في الزيتونة بتونس، ثم رجعوا إلى وطنهم، حيث قضوا بقية حياتهم متصدين للتدريس والقضاء(42)، وهناك نوع رابع وهو الذي دخل تونس آتيا إليها من فاس(43) أو قسنطينة(44)، ليستقر فيها مدة وجيزة، ثم يرجع إلى بلده أو يرحل منها نحو المشرق العربي.

ومن زاوية أخرى فللقرن التاسع عشر الميلادي وجه آخر، ونعت آخر غير الذي نعتناه به سابقا، إذا نظرنا إلى أخرياته، باعتباره رابطة وهمزة وصل بين عصور الإنحطاط الثقافي والعلمي في الجزائر وعصر النهضة، بحيث هناك ثلة هامة من الصفوة الجزائرية، التي أخذت على عاتقها مهمة النهوض بالبلاد ثقافيا وعلميا، والتي لم تجد بد التأدية مهامها على أكمل وجه ممكن، أن تقصد تونس وبالذات جامعة الزيتونة لتغرف هناك من مناهل العلم ما تيسر لها، ثم تعود إلى موطنها الأصلي، دون أن تقطع الصلة بينها وبين تونس، بل كانت إقامة هؤلاء هنالك، مهما كانت مدتها، طويلة أم قصيرة، عاملا هاما في ربط الصلات بين الجزائر وتونس ومد جسر ثقافي علمي، ثم سياسي، بين القطرين، وذلك بتوجه تلاميذهم وطلابهم نحو الجزائر الثقافية في تونس وبالأخص منها جامعة الزيتونة، حيث يتكون هؤلاء، ثم يرجعون إلى بلدهم، وأحسن مثال على ذلك ما قام به الشيخ عبد الحميد بن باديس، في العشرينات الفارطة، وما قام به خلفاؤه من بعده في الخمسينات، وذلك بجعل معهد ابن باديس في قسنطينة كملحقة رسمية لجامعة الزيتونة ليتسنى للطلبة الجزائريين الإلتحاق أوتوماتيكيا بالزيتونة مباشرة بعد إنهاء دراستهم الإعدادية في معهد ابن باديس، وليس المجال هنا للتوسع أكثر في هذا الموضوع الهام، ومرادنا من الإشارة إليه، يمكن فقط في التذكير بالعلاقات الطيبة الثقافية والعلمية والسياسية التي وجدت بين القطرين الشقيقين تونس والجزائر عبر أكثر من تسعة قرون خلت.

ولئن كانت العلاقات السياسية بين البلدين قد تأثرت سلبا أو إيجابا بالظروف التي كانت تمر بها المنطقة، واتخذت في بعض الأحيان مجرى آخر، غير الذي ترغب فيه الجماهير المغربية، فإن العلاقات الثقافية والعلمية والإجتماعية، لم تؤثر فيها تلك المواقف، التي إتخذت من هذا الجانب أو من الجانب الآخر، والتي بالنسبة إليها لم تكن سوى عبارة عن سحابة عابرة، سريعة التفكك والتبدد... وهل تقوى السحب مهما كان سمكها وكثافتها، في مغربنا الكبير، على أشعة الشمس وفعلها فيها؟

والعلماء الجزائريون، الذين عاشوا فيما بين القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، والذين كانت لهم علاقة علمية وحضارية واجتماعية وسياسية بتونس أولا ثم بمصر ثانية بالنسبة للبعض منهم، قدر لهم أن يحملوا على عاتقهم مهمة



النهوض بالبلاد، وفي المجالات المذكورة سابقا، في الفترة الممتدة ما بين 1900 و1939، وأن يتركوا بصماتهم(44) واضحة جلية لا في الناحية الإجتماعية والثقافية والعلمية للمجتمعين الجزائري والتونسي فحسب، ولكن أيضا في الناحية السياسية، بحيث كان لهم دور كبير في توجيه الحركة الوطنية توجيها يتماشى وطموحات الجماهير الشعبية العربية الإسلامية.

وفي هذا الإطار، وليس في غيره، يمكن وضع حركة العلماء الجزائريين، ودراسة ما ترتب عنها من تطورات ونتائج أدت في آخر مطافها إلى دحر الإستعمار الفرنسي واسترجاع السيادة الوطنية كاملة دون نقصان.

وما يلاحظ على هذه الفترة، التي هي من أهم فترات تاريخ الجزائر المعاصر، أنها أنجبت كل العلماء، والشخصيات السياسية، التي تعلمت وتثقفت ثقافة عربية إسلامية، والتي قدر لها أن تمسك بزمام الأمور، لتلعب الدور الريادي المنوط بها تارة، أو على الأقل تحتل مكانة مرموقة في الصنف الثاني للحركة النهضوية الوطنية.

ولتوضيح الرؤية لدى القارئ العادي، يمكن تصنيف وترتيب هؤلاء العلماء، حسب تاريخ وفاتهم كما يلي:

- صالح بن مهنا (1854-1910)، محمد المكي بن عزوز (1854-1915)(45)، محمد التهامي شطة(46) المتوفى سنة (1915م)، الخنقي عاشور (1848-1929)، إبن سماية عبد الحليم (1866 - 1933)، السوفي إبراهيم (1888-1934)، حسن بولحبال (1897)، عبد الحميد بن باديس (1889-1940م)، مبارك ميلي (-1945 1898)، مامي إسماعيل (1889-1956)، الزاهري محمد السعيد (1899-1956)، العربي التبسي(1895-1957)، أطفيش إبراهيم بن يوسف (1888 - 1965)، أبو اليقظان إبراهيم (1888-1973)(47).

ولد صالح بن مهنا في نواحي القل (عنابة)، ونشأ بقسنطينة، وتعلم بها، وانتقل منها إلى تونس ثم إلى القاهرة لمواصلة تعليمه، ثم عاد إلى قسنطينة حيث انصرف إلى التدريس إلى أن توفى بها وصالح بن مهنا القسنطيني الأزهري، كما كان يعرف في عصره، عالم سلفي، من رواد الحركة الإسلامية الذين حاربوا البدع، له رأي في هذا المجال قد يكون جديرا بالدراسة والبحث(48).

ومن علماء هذا العصر، الذين كان لهم اشتغال بالسياسة، محمد المكي بن عزوز(49) (1280-1334هـ)، (1854-1915م)، من أكابر الأدباء في عصره له شعر، عالم الفقه والحديث، قاض، أصلا من مدينة طولقة (بسكرة)، رحلت عائلته إلى مدينة نفطة بتونس، حيث ولد وتعلم بها وبجامعة الزيتونة، وولي إفتاءها وقضاءها. دعا إلى مقاطعة فرنسا إقتصاديا خلال زيارته لها... رحل إلى الأستانة، حيث عينه السلطان عبد الحميد مدرسا للحديث والفقه في دار الفنون، وكانت له شهرة في العالم الإسلامي، مات بالأستانة. له عدة مؤلفات، لا تزال كلها مخطوطة.

وقد تبنى محمد التهامي شطة(50) المتوفى حوالي (1333هـ)، (1915م)، نفس الخط السياسي والإجتماعي والديني، لمعاصره السابق الذكر، محمد المكي بن عزوز، وهو كاتب معروف في عصره، أديب، من دعاة الإصلاح، له اشتغال بالسياسة، ولد، وتعلم، ونشأ في مدينة الأغواط، وعندما احتلها الفرنسيون سنة 1852، غادرها إلى تونس التي أقام بها مدة عقدين من الزمن، بحيث لم يغادرها حتى احتلال فرنسا لها (1881)، ليستقر في دمشق، حيث أنشأ صحيفة «المهاجر» في 11 جانفي 1912، ثم أنشأ صحيفة أخرى، وهي «الإتحاد الإسلامي» في 23 جانفي 1915، ثم إنتقل إلى الأستانة حيث توفي.

ومن علماء الجزائر في نفس الفترة، الذين كان لهم اشتغال بالدين والسياسة، عاشور الخنقي(51) (1264-1348هـ)، (1848-1929م)، فقيه مالكي معتبر، له اشتغال بالحديث، وباحث ولد في خنقة سيدي ناجي (بسكرة)، ونشأ بقسنطينة، حيث تعلم، ثم انتقل إلى نفطة بتونس، طلبا للعلم. نفاه الفرنسيون إلى الأغواط.

وإلى نفس الرعيل، ينتمي إبن سماية عبد الحليم(52) (1283-1351هـ)، (1866-1905م). ولد بمدينة الجزائر، حيث تعلم ونشأ، ومنها انتقل إلى تونس طلبا للعلم، ثم عاد إلى بلده حيث تولى خطة التدريس في المدرسة الرستمية بالجزائر العاصمة، إلى أن توفي. ويختلف إبن سماية عن العلماء الذين سبقوه ذكرا، كونه مهتما بتقويم الأخلاق والمسائل الإجتماعية والدينية، وما دون ذلك فليس من شأنه.

ولكن أشهر هؤلاء إطلاقا الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس(53) (1308-1359هـ)، (1889 - 1940م)، من أكابر رجال الإصلاح والتجديد في الإسلام، واضع أسس النهضة المعاصرة الجزائرية، مفكر فذ، وعبقري من عباقرة عصره، صد عن الدنيا وملذتها ليكرس حياته لبني وطنه، عاش نظيفا، ومات نظيفا إلى



بعض نظرائه الذين قد يقال عنهم يوما ما الشيء الكثير، الذي قد ينزع الغبار عن حقائق، قد لا تسر كثيرا من الأحياء في أيامنا هذه، ولا تخدم ماضيهم «التاريخ» في شيء.

وبدون ريب، سيبقى نجم الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس متألقا في الأفق أمدا طويلا، وقدوة حسنة للنشء الصاعد، ومواقف شهامة، ورجولة، وشجاعة نادرة يحتذي بها على مر العصور، ولد بمدينة قسنطينة في أسرة ميسورة ماديا، محبة للعلم والعلماء، ذات مكانة اجتماعية مرموقة، بحيث كانت من أشهر الأسر في قسنطينة في وقتها، وهو ما سهل كثيرا على إبن باديس المضي قدما في مهمته التربوية والإصلاحية، وكان بالنسبة إليها بمثابة الدرع الواقي، الذي حال دون وصول يد الإستعمار الفرنسي القاهرة إليه. وقد إتخذ إبن باديس بعض المواقف الصلبة، في بعض الفترات من تاريخ حياته، دون تردد، ودون رجعة، ولم تجد الإدارة الإستعمارية الفرنسية بدا من النفوذ إليه والإنتقام منه، علما أن تقنيها ومتخصصيها في السياسة والإجتماع، قد نبهوها بخطورة الحركة التي كان يتزعمها إبن باديس، وعلى الرغم من ذلك وتفاديا منها لمواجهة صريحة لإبن باديس، وأنصاره سلكت معه إدارة الإحتلال، وعاملته معاملة غير التي عاملت بها نظراءه، الذين سلطت عليهم القهر والتنكيل قدر ما استطاعت ليعدلوا عن آرائهم إزاءها، وليتخلوا عن أمر الإصلاح الإجتماعي والديني، والذي اعتبرته إدارة الإحتلال خطرا يهدد وجودها في الوطن، مثل الشيخ الطيب القبي، نموذج حي على ما ذهبنا إليه.

فإذا كانت حياة عبد الحميد بن باديس قد درست من جميع جوانبها، فلقد يبقى جانب هام منها لم يدرس، وهو الجانب السياسي، بل هناك من غالى كثيرا في تقديم حياته وأخرجه من إطاره الحقيقي إلى إطار آخر قد يتسبب في بعض الغموض والإبهام فيما يخص الرجل، وهذه قطعا ليست من مسؤولية المختصين، وليس لهم علاقة بها من قريب أو من بعيد.

ولكن الذي يهم موضعنا، والذي له علاقة مباشرة به، أن عبد الحميد بن باديس، يعتبر وبدون منازع من واضعي، بل واضع، أسس التواصل الثقافي والعلمي بين تونس والجزائر، بحيث كانت رحلته، سنة 1908، نحو جامعة الزيتونة بتونس، طلبا للعلم، فاتحة عهد جديد بين القطرين الشقيقين. وبعد إتمام دراسته في تونس رجع عبد الحميد بن باديس إلى مسقط رأسه سنة (1911-1912). حيث تصدى

للتدريس في جامع سيدي لخضر وجامع سيدي قموش، دون أن يقطع صلاته بتونس بشيوخه فيها. ومنذ رجوعه إلى أرض الوطن هيأ عبد الحميد بن باديس خطة وبرنامجا تعليميا يمكن الشبيبة الجزائرية من نفض غبار الجهل والأمية نهائيا عليها ويقطع الصلة كلية بين ماضي عقيم وحاضر زاهر مبتسم، كما كان يتصوره الشيخ عبد الحميد بن باديس. والفرق الجوهري بين عبد الحميد بن باديس وغيره من علماء عصره، أن له مشروعا تعليميا – تربويا وثقافيا، كان يرمي من خلاله إلى النهوض بالبلاد، في وقت بلغت فيه أدنى درجات انحطاطها، وذلك على خلاف نظرائه الآخرين الذين لم يكن لهم أي مشروع، وذلك هو السر في نجاح عبد الحميد بن باديس ودخوله التاريخ من أبوابه الواسعة.

ولضمان النجاح لمشروعه، منذ رجوعه إلى أرض الوطن من تونس سنة 1912، أخذ عبد الحميد بن باديس يتصل بطلبة العلم في قسنطينة وضواحيها، يحرضهم على التوجه إلى تونس لإتمام دراستهم، ويبدو أنه استطاع أن يوجه بعضهم إلى الزيتونة، وذلك قبل اندلاع الحرب الكونية الأولى بشهور قلائل(54)، ولكن اندلاع الحرب وظروف عدم الأمن، وما ترتب عنها من نتائج، قد حال دون مواصلة «البعثة» هذه تعليمها في الزيتونة، وأجل كل شيء إلى بعد الحرب.

ولم يرض نشاط عبد الحميد بن باديس كل الناس، بل هناك من رأى فيه أنه تهديد لمصالحه، الشيء الذي عرّض إبن باديس إلى مضايقات ومكائد حاكها أعداؤه ضده، فرحل إلى المشرق وحجّ، وخلال رحلته لقي جماعة من العلماء، من الجزائر وغير الجزائر.

وبعد انتهاء الحرب عاد إلى أرض الوطن فأخذ يعلم النشء الجزائري ويعده للمستقبل القريب والبعيد، ولتكوين أعوان له يساعدونه في مهمته التعليمية أخذ يصطفي النجباء من طلابه ليوجههم نحو الزيتونة، وقد أخذ هؤلاء طريقهم تحت تأثيره وعملا بنصائحه نحو تونس في بداية العشرينات الفارطة، ليرجعوا بعد سنوات قلائل إلى أرض الوطن، مكونين مؤهلين للقيام بالمهمة المنوطة بهم، والتي انحصرت خلال هذه الفترة المتقدمة من نشاط إبن باديس، في إعطاء تعليم نقي، يستجيب وأهداف النشء الصاعد.

ومن أوائل تلاميذ إبن باديس الذين درسوا مثله في الزيتونة وتخرجوا منها بين سنتي 1924-1925م: محمد مبارك الميلي، والعربي التبسي، والسعيد الزاهري، والقسنطيني عبد السلام، ومحمد العيد آل خليفة، ويعتبر هؤلاء إلى جانب البعض



الآخر الذي رجع إلى أرض البلاد من المشرق(55)، الرعيل الأول، والسند الأساسي الذي إستند إليه إبن باديس لوضع ركائز حركة علمية، وتربوية، وإصلاحية دينية وأخلاقية واجتماعية، لنفض الغبار على المجتمع الجزائري وإيقاظه من سباته العميق.

والحق أن ظروف العشرينات كانت جد مواتية، وعامل من العوامل الهامة التي ساعدت إبن باديس على القيام بنشاطه المتعدد(56) الجوانب والأهداف، بحيث أصدر سنة 1926 جريدة المنتقد، ثم مجلة الشهاب، في نفس السنة، كما أصدر فيها بعد ذلك صحفا أخرى مثل الصراط، والشريعة والسنة، والتي كانت كلها تصب في مجرى واحد، هو النهوض بالبلاد وجعلها تساير الركب الأمم المتقدمة.

ولخطورة الدور الذي لعبه إبن باديس في إذكاء الروح الوطنية وصقل مشاعرها وتوجيهها توجيها يتماشى ومشروع المجتمع الذي كان يتوخاه، فإن حياته على قصرها، يمكن تقسيمها إلى خمس مراحل هامة، لكل مرحلة صفاتها ومميزاتها. فالمرحلة الأولى تمتد من سنة 1889 إلي سنة 1912، أما المرحلة الثانية فتمتد من سنة 1912 إلى سنة 1919، والمرحلة الثالثة وهي التي تمتد زمنيا فيما بين سنتي: 1920-1931، أما المرحلة الرابعة فتمتد ما بين سنتي: 1931-1936، أما المرحلة الخامسة والأخيرة فتمتد بين سنتي: 1936-1940.

وخلال مراحل حياة إبن باديس القصيرة الطويلة هذه، لم تخل مرحلة من مراحلها من التأثير في البلاد التونسية التي كانت بالنسبة إليه مصدر إلهام وإشعاع حضاري وعلمي اتجه إليه ووجه إليه تلاميذه، مدة تفوق عقدين من الزمن، متجولا أولا في شرق البلاد وفي جنوبها، ثم في وسطها، داعيا أهلها للإحتذاء بالسلف الصالح، الذي اقتنى المعارف والعلوم من ينابيعها وأصولها الأولى. ومن وجهة نظر إبن باديس هذه (فالعلم ليس منبعه الشرق)، كما يذهب إلى ذلك البشير الإبراهيمي، وغيره من الجزائريين الذين تعلموا بالمشرق العربي، إنما (فالعلم منبعه تونس)، وقد يطبق حقا وحقيقة عليه حتى نهاية المرحلة الرابعة من حياته، بحيث تشير بعض الوثائق(57) إلى أنه، إضافة إلى تونس، التي زارها في نهاية هذه المرحلة من حياته، وضع مشروعا لبعثة طلابية نحو الأزهر بالقاهرة، وهي أول إلتفاتة منه نحو المشرق العربي، وما عدا ذلك فليس هناك ما يثبت أن قبلته الحضارية والعلمية كانت غير تونس، وليس المجال هنا للخوض أكثر في حياة إبن باديس.

ومن تلامذته الذين كانت لهم علاقة وطيدة بتونس، المبارك الميلي(58)، (1364-1316)، (1898-1945)، مؤرخ، كاتب، واكب حركة الإصلاح، ولد في ميلة، تعلم بها وبقسنطينة، ومنها انتقل إلى تونس حيث أتم تعليمه في الزيتونة، وعاد إلى بلده فعمل في حقل التعليم. وقد لا تعود شهرة الميلي إلى شيء سوى لإهتمامه بالتاريخ، حيث ألف في ظروف خاصة كتابة المعروف: (تاريخ الجزائر في القديم والحديث).

ومن أبرز علماء هذه الفترة، وأكثرهم تحمسا للقضية الوطنية الذين لعبوا دورا يضاهي الدور الذي أداه إبن باديس في حركة النهضة الجزائرية الحديثة، الشيخ العربي التبسي(59)، (1312-1376هـ)، (1895-1957م)، قطب من أقطاب الفكر الإصلاحي المعاصر، جمع بين الإصلاح والوطنية الثائرة ومن أبرز أعضاء جمعية العلماء المسلمين. ولد الشيخ العربي التبسي في بلدة أسطح قرب تبسة وتعلم بزاوية نفطة وجامعة الزيتونة بتونس، هم بالأزهر بمصر. وعاد إلى وطنه (1925) فاشتغل بالتعليم في تبسة، وشارك في الحركة الإصلاحية قولا وكتابة، إتصل به إبن باديس في نفس السنة واتفقا معا على العمل في سياق الإصلاح الديني والإجتماعي والتربوي. وفي 1935 انتخب كاتبا عاما لجمعية العلماء، ثم نائبا لرئيسها سنة 1940، ولما رحل الإبراهيمي إلى المشرق سنة 1952 خلفه الشيخ العربي التبسي على رأس الجمعية التي أدار شؤونها إلى أنّ حلتها جبهة التحرير الوطني في سنة 1957. وبسبب موافقه الوطنية الثائرة سجنه الإستعمار الفرنسي عدة مرات، وفي 17 أفريل 1957 خطفه العساكر الفرنسيون واغتالوه(60).

وإن كانت هناك شخصية جزائرية ظلمها التاريخ، ولم تعط لها حقها، فإنها شخصية الشيخ العربي التبسي، ونحن نعيش عصر النسيان، يجب علينا أن نذكر أنه لمدينة تبسة عالم آخر عاش في غير عصر العربي التبسي، وهو محمد بن عيسى التبسي، شمس الدين أبو عبد الله المتوفى عام 1436م، من أكابر علماء عصره، فقيه من كبار فقهاء المالكية، عالم بعلوم العربية، ولي قضاء (حماه) بسوريا (شعلة نار في الذكاء، كثير الإستحضار، عارف بعدة علوم خصوصا العربية)(61)، مات ببرصة في بلاد الروم(62).

ومن كبار علماء الجنوب الجزائري، الذين عاشوا في نفس الفترة الزمنية، والذين لهم شأن يذكر علميا واجتماعيا وثقافيا وسياسيا، إبراهيم بن محمد إبراهيم بن يوسف أطفيش، أبو إسحاق(63)، سبيل وحدة المسلمين وإصلاح



أمورهم، وعلى الرغم من اختلاف سكناه بين بني يزقن، وتونس، والقاهرة، فإن مساعيه ومجهوداته السياسية، التي بذلها من أجل النهوض بالأمة واستفاقها من سباتها العميق، كانت واحدة، لم تختلف في شيء. ولد أبو إسحاق إبراهيم أطفيش، في قرية بني يزقن، بوادي ميزاب، حيث تلقى تعليمه الإبتدائي على يد شيوخ أهل المنطقة، وفي سنة 1917(64)، وتحت تأثير ما قام به الشيخ عبد الحميد بن باديس من زيارات ودعوات في الجنوب الجزائري لإعداد النشء وتوجيهه نحو الزيتونة لينهل هنالك من منابع العلم والمعرفة، انطلقت من وادي ميزاب أول بعثة علمية في اتجاه جامعة الزيتونة، في السنة المذكورة سابقا، بقيادة إبراهيم أطفيش وقد ضمت هذه البعثة صفوة من الأدباء والكتاب والشعراء والسياسيين أمثال إبراهيم بن الحاج عيسى المعروف بأبي اليقظان، والشيخ صالح بن يحي، وشاعر الحركة الوطنية الجزائرية مفدي زكرياء، والكاتب المجدد حمود بن سليمان رمضان، والأديب الكاتب عبد العزيز الثميني، ومحمد علي ديوز، وغيرهم(65).

وفي تونس، وإلى جانب الشيخ عبد العزيز الثعالبي، شارك إبراهيم أطفيش في الحركة الوطنية، ومقاومة الإستعمار الفرنسي، فعمدت إدارة الإحتلال إلى نفيه من تونس وإبعاده عنها، فلجأ إلى القاهرة في أواخر سنة 1923، حيث أنشأ مجلة المنهاج، وذلك في نفس الوقت الذي كان يعمل فيه في تحقيق بعض كتب التراث بالقاهرة. وقد كان أطفيش ممثلا لدولة عمان في جامعة الدول العربية، ورئيسا لوفدها الرسمي في هيئة الأمم المتحدة، (في دورة 1960)، وقبل ذلك، كان قد أسس سنة 1956، بالقاهرة، أول مكتب سياسي لدولة عمان، وإستمر في نشاطه هذا، ينشر المقالة السياسية والإجتماعية في المجالات والصحف المصرية، إلى توفي بالقاهرة(66).

وقد اقتفى أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى(67) آثار السلف الصالح(68)، (1306-1393هـ)، (1888-1973م)، فبرز في عدة علوم من علوم عصره، وهو صحفي، كاتب، شاعر، من رجال الإصلاح والتجديد، له اهتمامات بالتاريخ والتراجم والفقه. ولد بمدينة لقرارة بالجنوب الجزائري. تعلم بها وببني يزقن. ثم إلتحق بجامع الزيتونة، بتونس، حيث أتم تعليمه، وعاد إلى أرض الوطن في سنة 1925، حيث أتم تعليمه، وعاد إلى أرض الوطن في سنة 1925، حيث أصدر ما بين سنتي: 1926-1938 ثماني جرائد عربية عطلتها إدارة الإحتلال الواحدة تلو

الأخرى، وكانت أولها جريدة «وادي ميزاب»، التي صدرت في 1926/10/1. وفي سنة 1957، أصيب أبو اليقظان بمرض عضال أقعده الفراش، فاعتكف في بيته بالقرارة على الدراسة والكتابة، إلى أن توفي.

وإذا أتينا إلى القرن العشرين الميلادي، نلاحظ بكل بساطة، مرة أخرى، تقلص عدد الأعلام الجزائريين في تونس، علما أن دراستنا هذه: لا تتجاوز إطارا معينا، كما أنها تقتصر على العناصر التي عرفت في وقتها، والتي أدت دورا إجتماعيا أو علميا، أو ثقافيا، أو سياسيا معينا. ومن هؤلاء يمكن ذكر: الشاعر، الكاتب، رمضان حمود(69) (1324 - 1347هـ)، (1906-1929م)، الذي عرف بآرائه الثورية وأفكاره التقدمية في الأدب والإجتماع. ولد بغرداية وتعلم بتونس. توفي بمسقط رأسه وهو في الثالثة والعشرين من عمره.

ومن الشخصيات الجزائرية، خلال هذا العصر، التي كان لها دور يذكر في بعث الحركة الوطنية بتونس، صالح بن يحي بن الحاج سليمان(70)، المتوفى سنة (1368هـ)، (1948م)، عالم إباضي، من مؤسسي حزب الدستور التونسي القديم. ولد في بني يزقن، بوادي ميزاب، حيث تلقى تعليمه الإبتدائي، ثم أتم دراسته بتونس، التي إستقر بها، وكان ميسور الحال ماليا، فشارك في حركته الوطنية إلى جانب الشيخ عبد العزيز الثعالبي. ولما أنشئ حزب الدستور التونسي القديم كان من مؤسسيه وعضوا إداريا فيه.

ومن أدباء وشعراء نفس الفترة، الزاهري محمد الهادي السنوسي(71)، (1320-1383هـ)، (1902-1963م)، ولد في قرية ليانة، قرب بسكرة، وتعلم بها وبقسنطينة وتونس، وشارك قولا وكتابة في الحركة الإصلاحية، عرف خاصة بمؤلفه: (شعراء الجزائر في العصر الحاضر)(72).

ولعل أهم الشخصيات الجزائرية، في هذه الفترة، شاعر الحركة الوطنية الجزائرية، ثم شاعر ثورة نوفمبر 1954، مفدي زكرياء(73)، (1331-1396هـ)، (1912-1976م)، يمتاز شعره شكلا ومضمونا بالإبداع والتجديد مقارنة بكثير من نظرائه المعاصرين له. ولد في وادي ميزاب، وبرهن على موهبته الشعرية وهو مراهق، لا يزال في مرحلة التحصيل والدراسة، رحل إلى تونس لإتمام دراسته، وهنالك نضج وتحكم في الحرف العربي، ومنها انتقل إلى المغرب واتصل ببعض حكامه ومدحهم، كما سبق له أن فعل مع حكام تونس، لمفدي زكرياء شعر



وقصائد قد تخلد خلود الدهر، بسبب أصالتها، وصدقها، وقوة تعبيرها، منها: قسما بالنازلات الماحقات ... نشيد ثورة نوفمبر 1954، ثم النشيد الرسمي للدولة الجزائرية، ونشيد الطلبة والعمال الجزائريين، وغيرها(74).

وخلاصة القول، في هذا الباب، أن حركة العلماء الجزائريين نحو تونس، قد تطورت عبر العصور، تطورا معقولا يتماشى والظروف السياسية والثقافية والاجتماعية التي مرت بها منطقة المغرب الكبير. فخلال المراحل الأربع التي حددناها لهذه الحركة، والتي حصرناها زمنيا، كما سبق، نلاحظ من حيث عدد العلماء الذين كانت لهم علاقة علمية وثقافية بتونس، ولكن أيضا من حيث نوعيتهم، أن حركتهم عبارة عن طريق محدوب، يمكن تجسيده كالتالي:

| عدد العلماء | القرن | |
|---|---|---|
| 80 | - | - |
| 70 | - | - |
| 60 | - | - |
| 50 | - | - |
| 40 | - | - |
| 30 | 19/20 م | 14/15 م |
| 20 | - | - |
| 10 | 16/18 م | 9/13 م |
| 0 | 20 م | 6 م |

والاعوجاج الذي نلاحظه، في هذا الرسم البياني، أي الهبوط والصعود لأعدادهم في تونس، حسب تتبعناه لحركتهم نحو هذا البلد الشقيق، سواء كان الرسم على شكل مثلثين أو على شكل محدودب، شيء عادي للغاية، بالنظر للظروف السياسية والإجتماعية والثقافية التي مر بها كلا البلدين، وذلك عكس ما حدث بالنسبة للمغرب الذي سنتابع حركة العلماء الجزائريين نحوه في كتابنا: (العلماء الجزائريون في البلدان الإسلامية مشرقا ومغربا)، والذي سيصدر عما قريب.

فمن خلال الرسم البياني، الذي وضعناه، حسب تطور حركة العلماء الجزائريين نحو تونس، تتضح جلية ست فترات هامة، لكل منها مميزاتها وطابعها الخاص بها، فالفترة الأولى، قبل أن ندخل في تحليل كمي ونوعي للموضوع، تمتد ما بين القرنين 9/6 الميلاديين، (3/1هـ)، وهي فترة صدر الإسلام، ودخوله إلى بلدان المغرب الكبير، وطبيعي جدا، أن لا نجد خلالها أي عالم اتجه نحو تونس لسبب أو لآخر، وبالأحرى، وتدقيقا للفترة هذه، أن نهايتها قد تكون في نهاية الثلث الأول القرن التاسع الميلادي، الثالث الهجري، أي بتواجد العالم الجزائري المشوني إسحاق المتوفى (841م)، (226هـ)، في القيروان. وبانعدام تواجد أي عالم جزائري خلال هذه الفترة في تونس، ليس لنا أن نلاحظ عليها أي شيء سوى أنها كانت فترة تفاعل حضاري وإحتواء ثقافي لحضارة قديمة، وهي الحضارة المحلية البربرية، من طرف الحضارة العربية الإسلامية، بحيث لم تستطع الحضارة الأولى مقاومة الثانية، وذلك لضعف مقوماتها وعواملها الفعالية، كاللغة والدين مثلا، الشيء الذي يسر عملية الاحتواء، علما أنه ومهما بلغت عملية الاحتواء هذه من قوى وضغط على الحضارة المحلية، مهما كان مكانها وزمانها، فإنها عملية جزئية، وليست كلية، بحيث يقتصر مفعولها على الكليات، وليس الجزئيات، لأن الإلمام، في عملية الإحتواء أي ذوبان حضارة وانصهارها في بوتقة حضارة أخرى بطريقة يجعل التمييز بينهما في كل مجالات الحياة من الأشياء الصعبة، في حد ذاته، وخاصة إذا تعلق الأمر بحضارة عريقة كالحضارة البربرية القديمة، مطلب من المطالب الصعبة، ولا يمكن أبدا إدراكه، بدليل، أن بعض جزئيات الحضارة البربرية القديمة، رغم تفاعلها وتعاملها طيلة قرون مع الحضارة العربية الإسلامية، لا تزال قائمة راسخة تعبر في حد ذاتها عن تواجدها وكيانها الخاصين بها، ومن ثم فهي تعبر عن قيام حضارة راقية، كانت قائمة في الشمال الإفريقي، قبل أن



يلتقي بالحضارة العربية الإسلامية.

ومما يسرّ وسهل وفتح الطريق واسعا أمام انتشار الحضارة العربية الإسلامية في شمال إفريقيا قديما، أن عملية التلقيح قد تمت في ظروف استثنائية، وبالأخص بطريقة لا مجال للعنف فيها، تبعا لمبدأ المسلمين الأوائل آنذاك «لا إكراه في الدين».

والحق أن هذا المبدأ وحده: «لاإكراه في الحضارة» وحده كفيل بأن جعل الحضارة الجديدة وتفاعلاتها القوية، تنتشر بطريقة تلقائية بين أهل البلاد، وتجد طريقها إلى تونس أهل الحل والعقد والعلماء، ثم بواسطتهم، ومنهم إلى كافة طبقات المجتمع.

وقد انتشرت الحضارة العربية الإسلامية في شمال إفريقيا وثبتت أقدامها في المنطقة بواسطة عاملين حضاريين إثنين، هما: الدين أولا واللغة ثانية. فبالنسبة للعامل الأول، لم يجد الدين الإسلامي أمامه، في المنطقة، دينا قويا ليقف أمامه موقف الند للند، بل وجد دينا، الذي هو المسيحية، في وضعية لا يحسد عليها، موجود ظاهريا، غير مترسخ في نفوس أهل البلاد، وإذا عرفنا أن محاربة دين ما لا تكون إلا بواسطة مثله، وكذلك الشأن بالنسبة للغة، ندرك جوانب القوى للإسلام وهو يضع أقدامه في شمال إفريقيا.

أما بالنسبة للعامل الثاني، الذي هو اللغوي، فإرتباطه بالدين أولا، ثم عدم وجود منافس له، بحيث لم تكن لشمال إفريقيا لغة بمعنى الكلمة، عدا اللهجة البربرية، أو اللغة اللاتينية، التي كانت محدودة الإنتشار والإستعمال، مما جعل لغة العرب تنتشر تبعا لانتشار دينهم، إذا عرفنا أنه كان ولا يزال لزاما على كل فرد يعتنق الإسلام، أن يتعلم ولو قسطا زهيدا من لغته يمكنه من أداء واجباته الدينية، نقف بكل سهولة على الأسباب التي ساعدت على انتشار اللغة العربية في شمال إفريقيا شيئا فشيئا إلى أن تم تعريبه نهائيا في القرن الثالث هجري، التاسع ميلادي، وقد انكب أهل شمال إفريقيا، على دراسة العربية وعلومها بشغف كبير إلى أن أدركوا أسرارها، فتفوقوا في كثير من الأحيان، على أهلها من أجل طلب العلم أو التفقه في الدين. خرج كثير من الجزائريين متوجهين نحو المراكز الثقافية، في كل زمان ومكان، يبحثون عنها في الأندلس، وتارة أخرى في المغرب، أو تونس، أو في المشرق العربي.

ولكن الأهم من هذا كله، أن الحضارة المحلية، سواء تعلق الأمر بتونس، أو بالمغرب، أو بالجزائر، بقيت صامدة مدة، تزيد على أربعة عشر قرنا من الزمن، ولم تضمحل نهائيا، وإلى حد الآن يستطيع المرء بكل سهولة أن يقف على بعض خصوصياتها ومعالمها بادية جلية للعيان، في كل شبر، على طول امتداد التراب الوطني.

ونحن نعيش عصر مفاهيم جديدة، وأساليب جديدة لطرح كل ما يمكن طرحه منها، وبطريقة عقلانية، لا مجال للمجاملة، أو السفسطة، أو المناورات السياسية، فمن السذاجة أن نتكلم عن كل شيء، يبدو لنا أولوية الأولويات، في عملية الإقلاع الحضاري والإقتصادي والسياسي والثقافي والإجتماعي.

فالإنتماء شيء، حسا، وإدراكا، وعقلا، وعقلانية، والذوبان فيه والإنبهار به إلى حد المغالاة شيء آخر، قد لا تقبله مستقبلا، لا العقول النيرة الجزائرية، ولكن أيضا حتى أخملها وأبسطها.

فليس من السهل تصور فرد جزائري ينمو ويتطور في محيط ثقافي غير محيطه الأصلي، يستطيع منافسة الفرد الأوربي، أو الأمريكي، أو الياباني، إذا لم يكن واعيا تمام الوعي بأصالته وبجذوره العميقة الضاربة أطنابها في تاريخه العميق، وأن يشعر أنه خلال هذه الحقبات التاريخية الكثيرة التي مر بها أسلافه وأجداده، والتي كان بعضها له وبعضها الآخر عليه، كان له كيان مستقبل، خاص به، بإيجابياته وبسلبياته، ففي هذا الإطار، وليس في غيره، نما وتطور علماء الجزائر، خلال الحقبات التاريخية التي حددناها. والدليل على ذلك، أنه كان يروق الكثير منهم، الذين تنقلوا غربا أو شرقا، أن يميزوا أنفسهم في سكان البلد المضيف، بتصدير أسمائهم الحقيقية بعبارة (جزائري) ومنهم من عرف خارج وطنه نسبة إلى مسقط رأسه، فيصدر اسمه بعبارة (البسكري) أو (الشاوي) أو (الباتني) أو (المستغانمي) أو (البجائي) أو (التاهرتي) أو (الوهراني) أو (المسيلي) أو (الندرومي) أو (التلمساني)، وغيرها من الدلالات التي تثبت إنتماءه ونسبته الجزائرية المحضة، وهي صفة قد ينفرد بها الجزائري، بالنسبة لغيره من سكان المغرب الكبير، فالتونسي مثلا خارج وطنه، يعرف (بالتونسي) فقط، والجزائريون، كما نلاحظ ذلك من تراجمهم وسيرهم الشخصية، فيصرون على التأكيد على



أصلهم وفصلهم من خلال أسمائهم أولا، قبل أن يثبتوا ذلك بكفاءتهم العلمية ومقدرتهم الثقافية.

أما المرحلة الثانية التي تبدو في الرسم البياني السابق، والتي تمتد ما بين القرنين التاسع والثالث عشر الميلاديين، (7/6هـ)، فهي مرحلة، وإن كان ليست هامة كثيرا بعدد علمائها في تونس، ولكنها من ناحية أخرى، هامة، من حيث نوعية علمائها الذين وجدوا بتونس، مثل إسحاق الملشوني، والحسن ابن رشيق، والحسن ابن الزبيب، وابن النحوي، وابن منداس، وغيرهم.

وعموما فقد كان للانقلابات السياسية، وعدم الاستقرار الذي عاشته المنطقة، على عهد الأغالبة والعبيديين والزيانيين، دور في تقهقر الأوضاع الثقافية والعلمية في المنطقة.

وإذا مررنا إلى عند الحفصيين بتونس، نلاحظ تغيرا ملحوظا في الميدانين المذكورين، وهو ما يقودنا إلى التكلم، عن الحقبة الثالثة التي أظهرناها، في رسمنا البياني السابق، والتي تمتد كما هو واضح ما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين(9/7هـ)، وهي أزهى وأغنى فترة ثقافية وعلمية عاشتها الجزائر، وهي الأولى في تاريخها الثقافي، التي برزت من خلالها، لا بعدد علمائها الهائل، ولكن أيضا بعدد هام منهم الذين طارت شهرتهم وسبقتهم مغربا ومشرقا، بل حتى إفريقيا، بصماتهم واضحة في ميدان العلم والمعارف التي كانت متداولة في عصرهم: الشريف التلمساني، وأحمد الغبريني، وإبن الكماد، وأحمد المقري، وعبد الرحمن الثعالبي، ومرزوق ابن الحفيد، وغيرهم.

أما المرحلة الرابعة، من حركة علماء نحو تونس، والتي تبدو في رسمنا البياني، فهي التي تمتد ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلاديين، (12/12هـ)، وهي الفترة العثمانية بتونس والجزائر، والتي يلاحظ من خلالها، بكل سهولة، انطفاء الاشعاع الثقافي، وقلة العلماء والمثقفين في الجزائر، ومن ثم كان تواجدهم نادرا، يكاد في بعض الأحيان أن ينعدم تماما، بحيث كما واضح من الإحصاء الذي قمنا به، أننا لم نستطع سوى تسجيل عالم واحد، في تونس خلال قرن كامل، بل عالم واحد لكل قرن: القرن 15 / 16هـ، والقرن 16م، والقرن 17/16م، والقرن 18م، (انظر الجدول الآتي).